

سُورَةُ الْخَقَافِ

قَالَ تَجَالَى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحِمَهُ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الْخَقَافُ: ١٢]

القراءات: «لينذر» قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والبزي بخلف عنه بتاء الخطاب، وقرأ الباقر بياء الغيب وهو الوجه الثاني للبزي.

التوجيه: قال الرازي: قرئ «لينذر» بالتاء لكثرة ما ورد من هذا المعنى بالمخاطبة كقوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْخَقَافُ: ٢]، وقرئ بالياء لتقدم ذكر الكتاب فأسند الإنذار إلى الكتاب كما أسند إلى الرسول.

وقال ابن عاشور: وقرأ نافع وابن عامر والبزي عن ابن كثير ويعقوب «لتنذر» بالتاء خطاباً للرسول ﷺ فيحصل وصف الرسول ﷺ بأنه منذر ووصف كتابه بأنه «بشري» وفيه احتباك وقرأه الجمهور بالياء على أنه خبر عن الكتاب فإسناد الإنذار إلى الكتاب مجاز عقلي.

قَالَ تَجَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الْخَقَافُ: ١٥]

القراءات: «إحساناً» قرأ عاصم وحمة والكسائي وخلف العاشر «إحساناً» بهمزة مكسورة قبل الحاء ثم إسكان الحاء وفتح السين وألف بعدها، وقرأ الباقر: «حُسْنًا» بحذف الهمزة وضم الحاء وإسكان السين وحذف الألف.

«كُرْهًا» قرأ ابن ذكوان وعاصم وحمة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر وهشام بخلف عنه بضم الكاف والباقر بفتحها وهو الوجه الثاني لهشام. «وفصاله»: قرأ يعقوب بفتح الفاء وإسكان الصاد بلا ألف والباقر بكسر الفاء وفتح الصاد وألف بعدها.

التوجيه: قال الرازي: واعلم أن الإحسان خلاف الإساءة والحسن خلاف القبيح. فمن قرأ «إحساناً» فحجته قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَبِأُولَٰئِكَ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. والمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما إحساناً وحجة القراءة الثانية قوله تعالى في العنكبوت ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ولم يختلفوا فيه. والمراد أيضاً أننا أمرناه بأن يوصل إليهما فعلاً حسناً إلا أنه سمى ذلك الفعل الحسَن بالحُسْن على سبيل المبالغة كما يقال هذا الرجل عِلْمٌ وَكَرَمٌ. وانتصب حسناً على المصدر لأن معنى «ووصينا الإنسان بوالديه» أمرناه أن يحسن إليهما إحساناً ثم قال تعالى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وفيه مسائل: (المسألة الأولى)، قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «كُرْهًا» بضم الكاف والباقون بفتحها قيل هما لغتان: مثل الضَّعْف والضُّعْف والفقر والفُقْر ومن غير المصادر: الدَّف والدُّف والشَّهْد والشُّهْد.

قال الواحدي: «الكُره» مصدر من كرهت الشيء أكرهه و«الكُره» الاسم كأنه الشيء المكروه؛ قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فهذا بالضم وقال ﴿أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كُرْهًا﴾ [النساء: ١٩]، فهذا في موضع الحال ولم تُقرأ الثانية بغير الفتح، فما كان مصدرًا أو في موضع الحال فالفتح فيه أحسن، وما كان اسماً نحو ذهبت به على كُره، كان الضم فيه أحسن.

فائدة: قال أبو حيان: قيل ضمن «ووصينا» معنى ألزمتنا فيتعدى لاثنتين فانتصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا، وقيل: التقدير ذا حسن أو ذا إحسان ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان فيكون مفعولاً له أي وصيناه بهما لإحساننا إليهما فيكون الإحسان من الله تعالى وقيل: النصب على المصدر على تضمين معنى أحسنًا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً.

وقال أبو حيان أيضاً: قرئ «كُرْهًا» بضم الكاف وفتحها، والضم والفتح لغتان بمعنى واحد كالعُقر والعَقْر. وقالت فرقة: بالضم المشقة والغلبة والقهر وضعفوا

قراءة الفتح وقال بعضهم: لو كان بالفتح لمرت به عن نفسها! فمعناه: القهر والغلبة. انتهى وهذا ليس بشيء إذ قراءة الفتح في السبعة المتواترة وقال أبو حاتم: القراءة بفتح الكاف لا تحسن لأن الكره بالفتح: القهر والغلبة. انتهى، وكان أبو حاتم يطعن في بعض القرآن بما لا علم له به جسارة منه عفا الله عنه وانتصابهما على الحال من ضمير الفاعل أي حملته ذات كره أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي حملاً ذا كره.

وقال ابن جرير: واختلفت القراء في قراءة قوله «وَفَصَّالَةٌ» فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار غير الحسن البصري: ﴿وَحْمَلُهُ، وَفَصَّلُهُ﴾. بمعنى: فاصلته أمه فصلاً ومفاصلة وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤه: «وَحْمَلُهُ وَفَصَّلُهُ» بفتح الفاء بغير ألف بمعنى وفصل أمه أباه والصواب من القول في ذلك عندنا ما عليه قراء الأمصار لإجماع الحجة من القراء عليه وشذوذ ما خالفه.

قلت: قد قرأ بقراءة الحسن البصري يعقوب، وهي قراءة متواترة وليست بشاذة، ومعناها صحيح، فلا وجه لردّها.

قَالَ تَجَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ [الْإِنْفَاقِ: ١٦].

القراءات: «نقبل، أحسن، نتجاوز» قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بياء مضمومة في الفعلين. «وأحسن» بالرفع، وقرأ الباقون بنون مفتوحة «وأحسن» بالنصب.

التوجيه: قراءة النون تفيد عظيم فضل الله في قبول أعمال الصالحين، وأنه يضاعفها لهم، وكذا عظيم منته في تجاوزه عن سيئاتهم مهما كبرت طالما تابوا وأنابوا، وقراءة الياء على البناء للمفعول تفيد التعميم، فالله يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم جميعاً

وكذلك الكون كله يحبهم ويفرح بحسناتهم ويرضى عنهم من أجلها ويفرح بتوبتهم، فهم مقبولون عند الله وعند خلقه، ومتجاوز عنهم كذلك عند الله وعند خلقه.

قَالَ النَّجَّارِيُّ: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْإِنْفَاقُ: ١٩]

القرءات: «ليوفيهم» قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب وهشام بخلف عنه بالياء وقرأ الباقر بنون العظمة على الالتفات وهو الوجه الثاني لهشام.

التوجيه: قراءة النون «نون العظمة» تفيد عظيم فضل الله وإحسانه إليهم حيث يوفي المحسنين أجورهم إحساناً منه وفضلاً، كما تفيد عظيم قدرته وحكمته حيث يوفي الظالمين أعمالهم عدلاً منه وحكمة، كما تفيد عظيم شأن الجنة والنار، وقراءة الياء تفيد تعيين الفاعل فهو الله الكريم الحكم العدل، فهي تدل على البشارة للمؤمنين وعلى أنه لن يظلم أحداً شيئاً ولو كان كافراً، والله أعلم.

قَالَ النَّجَّارِيُّ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَبِيبَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الْإِنْفَاقُ: ٢٠]

القرءات: «أَذْهَبْتُمْ»: ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب كلٌّ على أصله من التسهيل وعدمه والإدخال وعدمه، وقرأ الباقر «أَذْهَبْتُمْ».

التوجيه: قال القرطبي: وقرأ الحسن وأبو العالية ويعقوب وابن كثير «أَذْهَبْتُمْ» بهمزيّن مخففتين واختاره أبو حاتم وقرأ أبو حيوة وهشام «أَذْهَبْتُمْ» بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام وقرأ الباقر بهمزة واحدة من غير مد على الخبر وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ والعرب توبخ بالاستفهام وبغير الاستفهام، واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأنه قراءة أكثر أئمة السبعة: نافع وعاصم وأبي عمرو وحزمة والكسائي. وترك الاستفهام أحسن لأن إثباته يوهم أنهم لم يفعلوا ذلك كما تقول: أنا ظلمتك؟ تريد أنا لم أظلمك، وإثباته حسن أيضاً يقول القائل: ذهبت فعلت كذا يُؤنَّخ ويقول: أذهبت فعلت! كل ذلك جائز.

وقال أبو حيان: وقرأ الجمهور: أذهبتم على الخبر أي فيقال لهم: أذهبتم ولذلك حسنت الفاء في قوله: (فاليوم تجزون). وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثاب وأبو جعفر والأعرج وابن كثير بهمزة بعدها مدة مطولة وابن عامر بهمزتين، وهذا الاستفهام هو على معنى التوبيخ والتقريب فهو خبر في المعنى فلذلك حسنت الفاء، ولو كان استفهاماً محضاً لم تدخل الفاء، والطيبات هنا المستلذات من المأكَل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطىء وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية.

قَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الْإِنْفَاقُ: ٢٣]

القرءات: «وأبلغكم» قرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام وقرأ الباقون بفتح الباء وتشديد اللام.

المعنى: قال في «لسان العرب»: أبلغه إبلاغاً وبلغه تبليغاً أي قد انتهى فيه وأنعم، والإبلاغ: الإيصال وكذلك التبليغ، والبلاغ: الكفاية، وبالغ يبالغ مبالغة وبلاغاً: إذا اجتهد في الأمر.

التوجيه: قال ابن عاشور: قرئ بتشديد اللام وتخفيفها؛ يقال بلغ الخبر بالتضعيف وأبلغه بالهمز، إذا جعله بالغاً.

قلت: القرءاتان تدلان على أن رسول الله (هود) عَلَّمَهُنَّ سَلَامَهُنَّ قد أبلغ رسالة ربه وبالغ في ذلك واجتهد حتى أوصل مراد ربه إلى قومه، ففي ما أنذرهم به كفاية لو كانوا يعقلون إلا أن قراءة التخفيف «أبلغكم» تدل على أصل المعنى، وقراءة «أبلغكم» بالتشديد تدل على وجود المبالغة والاجتهاد في ذلك بما لا مزيد عليه، والله أعلم.

قَالَ النَّجَّالِيُّ: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الْإِنْفَاقُ: ٢٥]

القرءات: «لا يرى إلا مساكنهم» قرأ عاصم وحمة ويعقوب وخلف العاشر بياء مضمومة ومساكنهم بالرفع وقرأ الباقون بتاء فوقية مفتوحة «ومساكنهم»: بالنصب.

التوجيه: قراءة «لا ترى» على أنه خطاب لرسول الله ﷺ أو خطاب لكل سامع، وفيه مزيد التذكير والتنبيه بتوجيه الخطاب للمراد وعظه وتذكيره، وإذا قلنا: الخطاب لرسول الله، فالمراد تسليته وتصبيره على إيذاء المشركين له ولأصحابه، وقراءة الياء على البناء لنائب الفاعل تفيد بيان هول ما أصابهم وتعميم إهلاكهم وعموم ظهوره لكل راءٍ، فهلاكهم قد اتضح لكل أحد.

فائدة: قال ابن عاشور: قرئ «لا يُرى» بضم الياء مبنياً للمجهول، ويرفع «مساكنهم»، ولم يقل «لا تُرى» أجرى على الجمع صيغة الغائب المفرد لأنَّ الجمع مستثنى بـ «إلا» وهي فاصلة بينه وبين الفعل. قلت: قراءة «لا تُرى» بضم التاء شاذة. وقال ابن جرير: واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ ﴿فَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَةَ قِرَاءَةِ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ﴾ «لا تُرى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ» بالتاء نصباً بمعنى فأصبحوا لا ترى أنت يا محمد إلا مساكنهم وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة «لا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ» بالياء في «يُرى» ورفع المساكن بمعنى: ما وصفت قبل أنه لا يرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم وروى الحسن البصري «لا تُرى» بالتاء وبأي القراءتين اللتين ذكرت من قراءة أهل المدينة والكوفة قرأ ذلك القارئ فمصيب وهو القراءة برفع المساكن إذا قرئ قوله «يُرى» بالياء وضمها وينصب المساكن إذا قرئ قوله «تُرى» بالتاء وفتحها وأما التي حُكيَت عن الحسن فهي قبيحة في العربية وإن كانت جائزة وإنما قبحت لأن العرب تذكر الأفعال التي قبل إلا وإن كانت الأسماء التي بعدها أسماء إناث فتقول ما قام إلا أختك، وما جاني إلا جاريتك ولا يكادون يقولون: ما جاءني إلا جاريتك وذلك أن المحذوف قبل إلا أحد أو شيء واحد أو شيء يذكر فعلهما العرب وإن عني بهما المؤنث فتقول إن جاءك منهن أحد فأكرمه ولا يقولون: إن جاءتك وكان الفراء يميزها على الاستكراه ويذكر أن المفضل أنشده:

وَنَارُنَا لَمْ تَرَ نَارًا مِثْلَهَا قَدْ عَلِمْتَ ذَاكَ مَعَدَ أَكْرَمَا

فأنث فعل مثل لأنه للنار؛ قال وأجود الكلام أن تقول: ما روى مثلها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [الْأَنْفَاقُ: ٣٣]

القراءات: قرأ يعقوب «يقدر» وقرأ الباقر: «بقادر».

التوجيه: قال أبو حيان: وقرأ الجمهور بقادر: اسم فاعل والباء زائدة في خبر أن وحسن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي وقد أجاز الزجاج: ما ظننت أن أحداً بقائم قياساً على هذا والصحيح قصر ذلك على السماع فكأنه في الآية قال: أليس الله بقادر؟ ألا ترى كيف جاء ببلى مقررًا لإحياء الموتى لا لرؤيتهم؟

وقال القرطبي: وقرأ ابن مسعود والأعرج والجحدري وابن أبي إسحاق ويعقوب «يقدر» واختاره أبو حاتم؛ لأن دخول الباء في خبر «أن» قبيح واختار أبو عبيد قراءة العامة لأنها في قراءة عبد الله ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ﴾ بغير باء، والله أعلم.

قلت: إذا وردت القراءة المتواترة بوجه، فلا يصح أن يُقال عنه قبيح، نعم قد يكون غير الأفصح، ولكنه وجهٌ فصيحٌ، لغةً، والقرآن قد نزل على أحرفٍ سبعة موافقاً للهجاء القبائل العربية ووجوه الكلام عندهم حتى يسهل عليهم حفظه.

وقال ابن جرير: اختلفت القراء في قراءة قوله «بقادر» فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار، عدا أبي إسحاق، والجحدري والأعرج «بقادر» وهي الصحيحة عندنا لإجماع قراء الأمصار عليها. وأما الآخرون الذين ذكرتهم فإنهم فيما ذكر عنهم كانوا يقرءون ذلك «يقدر» بالياء. وقد ذكر أنه في قراءة عبد الله بن مسعود «أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ الْأَرْضَ قَادِرٌ» بغير باء، ففي ذلك حجة لمن قرأه «بقادر» بالباء والألف.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يُونُسُ: ٨١]. قد قرأه رؤيس «يقدر»، وقرأه الباقر «بقادر» ولا إشكال هاهنا عند أحدٍ في قراءة «بقادر» بالباء لمجيئها خبراً لـ «ليس».